بين الامم سهلت لهم الاطلاع على عبادات بعضهم وتبادل الاقتباس . ولهذا تجد الديانة عند اليونان متكيفة عن اصولها بما داخلها من التحويز والاصلاح

وليس هذا الاقتباس منحصراً في الامتين بل نجد كثيراً من الامم تأخذ ضرباً من عبادتها عن غيرها او تدخل في زون اربابها وثناً جديداً كما سنبين ذلك في فرصة اخرى

جرجي بني

الانتحال

او سرقة الشعر والنثر

قال طرفة بن العبد

" ولا أُغير على الاشعار امرقها غنيتُ عنها وشرُّ الناسِ من سرقا "

ولو كان في ايامنا لقال

والنثرُ كالشعرِ ايضاً من تنخّلهُ عليهِ بين الورى اسمُ السارق الطبقا

يُطلق السارق او اللصُّ على من يعمد الى جدران البيوت والناسُ نيامٌ والليلُ مرخٍ سدولهُ فينقبها ويتسلل الى داخلها ويجوس خلال الغرف والمخادع ويتلقفُ ما خفَّ حملهُ وغلا ثمنهُ او على من يترصد أبناء السبيل مرابطاً مباغتاً حتى اذا هبطوا بطن وادٍ او جازوا قفراً خالياً انقضَّ عليهم من مكامن الطرق او مغابن الكهوف وسلبهم مالهم واشياءهم . او على خارب الابل وناهب المواشي او على من يخطف اولاد السُّودِ من عن ضفة نهرٍ او جانب غابة او حضيض جبلٍ ويبيعهم للغاسين بيع السماح او على خاطف السمع الذي يسرق ما يوحي بهِ ويجلي فيرمى بالرُّجُم من الجو الاعلى

هؤلاء يعرفهم القارىء بانهم سرّاقٌ ولصوص لانهم يخطفون ويخربون و يسلبون وينهبون وهم مذنبون بحكم جميع الشرائع والاديان ومذمومون بكل شفةٍ ولسان . لكنهُ قد يجهل ان بين اهل اللصوصية فريقاً يتلقف ما هو اكرم من المال ويتخطف ما يفوق كل عزيزٍ وغالٍ وهو آمنٌ في سربهِ مطمئنٌ في قلبهِ لا تنالهُ يدُ القانون باخف جزاء . ولا يعكر عليهِ الرأي العامُّ اقل صفاء . وهو المنقضُّ على سرّاق البيوت وقطّاع الطرق وخرّاب الابل من على منبر الخطابة بصواعق المطاعن والمثالب . والمرهف من غمد جريدتهِ او ديوانهِ او كتابهِ اقلاماً امضى من السيوف القواضب

هؤلاء يشنون غارة شعواء على مبتكرات القرائح ومواليد العقول ونتائج الافكار وينتهبون ما شاؤوا من منظوم او منثور وينتحلونهُ اي يدعونهُ لانفسهم غنيمةً باردةً ورزقاً مشاعاً كانهم أُوتوهُ حلالاً طيباً وهو السحتُ الحرام

ومعلوم انهُ شاع قديماً بين العرب شيءٌ من السرقة الشعرية كأن يستعين الشاعر بصدر او بعجز او ببيت كامل لشاعر آخر او يلمَّ بمعنى سبقهُ اليهِ غيرهُ دون أن يشير الى ذلك بكلام يدفعُ عنهُ تهمة الانتحال . على ان العرب لم يستحسنوا بهِ مع كونهِ طفيفاً بل انكروهُ وعدُّوهُ سرقةً كما مرَّ بنا في صدر هذه المقالة . وكأنَّ عزَّة النفس التي عُرفوا بها وأثرت عنهم وقفت بهم عند هذا الحدِّ من الانتحال فلم يُنقل عنهم أنهم تعدَّوهُ الى اكثر من ذلك او تجاوزوهُ الى النثر المسجَّع والكلام المرسل . ولا سمعنا قطُّ أنَّ كاتباً منهم تعمَّد انتحال مقالة لغيرهِ بل من يراجع تآليفهم ومصنفاتهم يجدهم اشدَّ الناس احتراساً من انصراف اقل تهمةٍ اليهم من هذا القبيل واعظم كتَّاب الارض ترفُّعاً عن مثل هذه الدنايا واسبقَ ارباب الاقلام الى الاعتراف بفضل من تقدَّمهم وذكر من نقلوا عنهُ واستعانوا بكلامهِ على تأييد ما قصدوا إثباتهُ او نقض ما ارادوا نقيهُ . واذ لم تعرف عندهم علامات الاقتباس التي شاعت عندنا في هذه الايام نقلاً عن اللغات الاوربية كانوا يدلُّون على ما يأخذونهُ عن غيرهم بكلمة قال . ويكثرون من تكرارها الى حدٍّ يرجب السآمة ويورث الملل

اما في هذه الايام فقد زاد سوادُ المنتحلين حتى كاد عدد سرَّاق القصائد والمقالات يربي على عدد الشعراء الحقيقيين والكتَّاب الصادقين . وقد بلغت بهم الجرأة حدًّا لا يعجب بعدهُ ان رأيناهم يفعلون بارباب الاقلام ما فعلهُ لصوص مكدونية والمغرب الأقصى بمس ستون والولدين الاسبانيين فيختطفون أسيلهم قريحةً واجرامهم يراعًا الى حيث ينقلونهم ويقترحون عليهم نظم الداووين وانشاء المقالات وتآليف الكتب وتعريب الفصول فكاكًا من الاسر وفداء من الاعتقال

وهذه النكبة الفادحة التي رُزيَ بها اصحاب الاقلام في الشرق هي من اكبر آفات النشأة الادبية والنهضة العلمية كأنَّ نكد الجدِّ أبى ان يفارق الشرقَ فلا يكاد يجتاز في طريق ارتقائهِ عقبةً كؤوداً حتى تعترضهُ عقبات ولا يظفر بالتغلُّب على آفةٍ حتى يلاقي بعدها آفات والاَّ فقل لي في اي بلاد غير بلادنا يقوم أناس ادعياء يحسدون شعراءها وكتَّابها على موتهم او على رزقهم الضيق الرائح من شق القصبة فينتحلون قصائدهم ومقالاتهم ويدَّعون الشعر والكتابة والصحافة بلا استحقاقٍ واستبداد كدعوى آل قيسٍ في زيادٍ . ويزيدون بضاعة

الادب كساداً يقطع منها وتين الرواج والنفاد

ولما وطّنت النفس على الكتابة في هذا الموضوع عولت على حصر البحث في الانتحال النثري الذي استشرى خطبهُ واستطار شرّهُ في مصر والشام وأصبح ضربة على ارباب الاقلام . لكني اذ اطلعتُ احد اصدقائي على مرادي رغب اليَّ أن أوسع للانتحال الشعري مجالاً في البحث لانهُ بات ايضاً داء فاشياً فامتثلت اشارتهُ وعوّلتُ ان اكتفي من ذلك بذكر حادثتين فقط احداهما أنَّ احد مشاهير الشعراء في بيروت عزم على جمع ما تفرّق من شعرهِ ليطبعهُ ديواناً فأعلن ذلك في الجرائد وطلب صورة بعض قصائدهِ ومقاطيعهِ من صديقٍ لهُ فانكرها عليهِ بتاتاً وبعد البحث عن علّةِ إنكارهِ لها ظهر انهُ ضمّها الى ما عندهُ من بضاعة الشعر المزجاة متوقعاً وفاة ناظمها اطال اللهُ عمرهُ فيطبعها منتحلاً لها يرًّا بعهد الصداقة والادب وخلطاً للدرّ بالخشلب

والثانية انَّ احد المتشاعرين او الشعاريرِ كلّفني ان انظم تاريخاً في تهنئة وجيهٍ انعم عليهِ بالوسام العثماني وقد اقترح عليهِ ذلك احد اصدقائهِ مصدقاً دعواهُ في الشاعرية فاجبتُ طلبهُ ونظمت التاريخ ولما اعطيتهُ اياهُ سألتهُ أن يحفظ لي صورتهُ و يردّها اليَّ بعد نقلها فوعدني ذلك ثم انقضت الايام والشهور ولم احصل من تذكيري لهُ بالوعد على سوى المطل والتسويف واخيراً علمتُ انهُ ادّعاها لنفسهِ وقد مزّق صورتها الاصلية حتى لا يبقى لي سبيل الى إثباتها بين منظوماتي لكن سوء الطالع خيّبَ رجاءهُ وكذّب ظنَّهُ من حيث لم يدرِ فاني عثرت لها بعد ذلك على اصل بين اوراقي ودوّنتها عندي

وفيما انا عازم على اثبات هاتين الحادثتين بالتفصيل عرض لي بائق غريب حادث آخر شغلت عندهُ شعابي جدواي فاجتزأت بما قدّمتُ فيهما من الاجمال اليسير . وابقيت التفصيل لهذا الحادث الاخير

وهو ان صديقاً لي اعطاني نسخة من ديوان الشاعر المشهور المرحوم الشيخ نجيب الخداد واذ كنتُ لم اطالعهُ من قبل فتحتهُ واخذت اقلّب صفحاتهِ لارى موضوع قصائدهِ ومقاطيعهِ وسائر منظوماتهِ شأن من يطالع كتاباً جديداً فاستمال نظري عنوان قصيدة في وصف القمر وقبل تلاوتها تذكرت اني لما كنت في بيروت عثرت في اواخر الربيع الماضي على بعض قصيدة في الموضوع نفسهِ لاحد شعرائها مدرجة في الجزء الخامس من احدى مجلاتها واسعدني الحظ ان ذلك الجزء محفوظ عندي فبحثت بهِ على الفور وفتحتهُ بازاء ديوان الشيخ نجيب وعكفت على المقارنة والمقابلة لعلي امتع النفس بمشاهدة شيء من الغرائب والنوادر الناتجة عن توارد

الخواطر الذي لم ينفرد شعراء العرب في القول به والاجماع عليه الاَّ ليسهلوا على المتشاعرين سبيل السرقة فيغيرون على جوهر الشعر المكنون . ويبذلون بالانتحال ماء المحيَّا المصون وهم آمنون مطمئنُّون لا خوف عليهم ولاهم يحزنون

وما قضيت في هذه المقابلة بضع دقائق حتى رأيتُ ما قضى بتعجبي واستغرابي وكاد يذهب برشدي وصوابي . اذ وجدت في بعض تلك القصيدة البيروتية اثني عشر بيتاً مأخوذة من قصيدة الشيخ نجيب على وجه السلخ والمسخ وغيرهما من انواع السرقة المنصوص عليها في مطولات البديع ولعلَّ احسن عذر نتمحَّلهُ لصاحبها أنها سرقةٌ باصول ؟؟

ولكي يكون القارىء على بينةٍ من صحة ما ذكرت أُثبت في ما يلي ابيات الشيخ نجيب واقابلها بما في القصيدة الاخرى . قال الشيخ نجيب

قرين الارض ليس يغيب عنها ... ولكن لا يواصلها القرين
يدور بها ولكن حين يدنو ... يفرُّ فلا يجيب ولا يلين

اخذهُ شاعرنا البيروتي فقال

وليدُ الارض انت ولا وليدٌ ... سواك بها يخامرها السرورُ
ولم يبرح بها برًّا رؤوفًا ... محبًّا حولها ابدًا يدورُ

وقال الشيخ

وتصفرُّ النجوم اذا تبدَّى ... كما يصفرُّ من حسدٍ جبينُ

اغار عليه صاحبنا وقال

سفرتْ وقد علا الزهرَ اصفرارٌ ... ولوَّنها فراحت تستجيرُ

وقال الشيخ

تمرُّ به السحائب مسرعات ... فيخفى تحتهنَّ ويستبينُ

سلخهُ شاعرنا وقال

وتحسدك الغيوم تمرُّ سرعى ... فيخفى نور وجهك ذا المزورُ

وقال الشيخ

فتحسبُ منهُ انَّ هناك ماءً ... ولا ماء هناك ولا عيونُ
ولا نبتٌ عليه ولا حياةٌ ... ولا نسيمٌ ولا غيثٌ هتونُ

مسخهُ السارق الاصولي وقال

فتحسبُ ان وجهك لج بحرٍ ... ولا بحرٌ هناك ولا غديرُ

ولا نبتٌ ولا حيوان فيهِ ولا نغمٌ ولا طيرٌ يطيرُ

وقال الشيخ

جنازة ميتٍ لا نعش فيها ولا ايدٍ حملنَ ولا انينُ

نقلهُ استاذنا فقال

كانَّ جنازةً لا ميت فيها ولا ندبٌ شجاك بهِ يثورُ

وقال الشيخ

حويتَ عجائباً فدعاك قومٌ الهًا حبُّهُ في الناس دينُ

تناولهُ ادبينا فقال

وفيهِ عجائب فدعاهُ قومٌ الهًا فعلهُ في الكونِ خيرُ

وقال الشيخ

فياشبهَ الحبيبِ حويت منهُ بهاهُ وفاتنا منك الفتونُ

حرَّفهُ المعارض البارع فقال

ايا بدر الظلام حويت جلاً من الاوصاف يعلمها الخبيرُ

وقال الشيخ

لنا في كل شهرٍ منك شكٌّ ولكن ليس يمهلهُ اليقينُ

باراهُ فيهِ المجلي فقال

لنا في كل شهرٍ منك هلٌّ تعرف ما يهلُّ بك الشهورُ

وقال الشيخ

وقاك الله كم تفني قروناً ولا تفنى محياك القرونُ

تلقَّفهُ اللبق فقال

فكم تفني العصورَ ولستَ كهلاً تبيّض شعر مفرقك العصورُ

وقال الشيخ في الخنام

ترى فيك البداءة كيف كانت قديماً والفناء متى يكونُ

وهل يبقى الوجود بلا فناءٍ وهل تعفو عن الشهب المتونُ

كوائن ليس يدري السرَّ منها سوى من امرهُ كاف ونونُ

تخطَّفها خاطر صديقنا في الخنام ايضاً فقال

اتخبرني البداءة كيف صارت وتصدقني الفناء متى يصيرُ

وهل يبقى البقاء بلا فناء لمخلوق وشهب لا تغورُ
مسائل ما درى الاسرار منها سوى من نعت عزته القديرُ

هذا ما رأيتهُ في بعض هذه القصيدة العامرة فكم يكون فيها كلها ؟ بل كم يبقى عليها من الستر بعد تجريدها من الفاظ الشيخ ومعانيهِ وتعابيرهِ وتراكيبهِ ؟ اكثر مما يبقى من " صبيرة طمسن " وبقي على القارىء ان يلاحظ الفرق العظيم بين بلاغة الاصل وفهاهة الفرع وبين متانة قوافي الشيخ وركاكة قوافي المنتحل . ولعلَّ شاعرنا البيروتي يدفع عن نفسهِ تهمة الانتحال ويدَّعي المعارضة ولكن عندي ان دعوى توارد الخواطر اسهل عليهِ من دعوى المعارضة . فليتمسك بهذه ويترك تلك عفا الله عنهُ وتاب عليهِ . ورحم الشيخ نجيب عداد إساءة هذا الشاعر اليهِ

ومما يحضرني من الشواهد على السرقات النثرية اني كتبتُ مقالةً موضوعها " لا تؤجل الى الغد " ونشرتها في الجنان . وبعد نحو سنتين اغار عليها احد المتطفلين على موائد الكتابة وعني بنقلها عن الجنان عناية كتبة اليهود بنساخة التوراة في قديم الزمان وارسلها الى النشرة الاسبوعية فطبعت ونُشرت بتوقيعهِ . ولما اعلمت ادارة النشرة بالامر واطلعتها على سرقة ذلك الدعيّ أبت نشر كلامي حفظاً لكرامتهِ وعندي وعند كل عاقل ان النشرة أخطأت باسرافها في الرفق واللطف اذ لو نشرت ما ارسلتهُ اليها في هذا الصدد لكان في ذلك عبرةٌ لهُ ولكثيرين من امثالهِ

ومنذ نحو شهرين نشر المقتطف في صدر مقالةٍ افتتاحية عنوانها " الفونسو الثالث عشر ملك اسبانيا " فلم يمضِ على ذلك الا بضعة ايام حتى رايتها مثبتة في احدى الجرائد المصرية برمتها دون ان يسبقها اقلّ كلمةٍ او اشارةٍ تشير الى نقلها عن جريدة اخرى تحت السماء وعرَّب المقتطف خطبة ولي عهد انكلترا عن احدى الجرائد الانكليزية وبعد برهة وجيزة . صدرت جريدة اسبوعية في القاهرة تميس في برد تلك الخطبة القشيب غير ذاكرة المقتطف ولو بكلمة ثناء على تجشمهِ مشقة التعريب

ولو شئتُ ان أُشير الى كلّ ما يسرق منهُ وينقل على هذا الاسلوب عنهُ من المقالات الكبيرة والقطع الصغيرة لملتُ واملت

لكنَّ المجلة الوحيدة التي توثّب فيها سرّاق النثر في مصر والشام وازدحموا في بابها " والمنهل العذب كثير الزحام " هي مجلة " المقتطف " التي استباح اولئك المنتحلون مقالاتها العلمية والفلسفية وفصولها الاجتماعية والادبية ومباحثها الزراعية والصناعية وفوائدها الصحية

والطبيعية وغير ذلك من مندرجاتها النافعة ومحتوياتها المفيدة فذخرها بعضهم عدةً لجريدته وبعضهم مصدرًا لمكاتباته و بعض الاساتذة خزانة لخطب طلبته ومباحثاتهم وبعض الخطباء والواعظين جعبةً لنصائحهم وارشاداتهم ولا تسأل عن الرسائل والنبذ والكتب التي أُلفت في العلم والادب والصنائع والفنون ووضعت اجزاء لتعليم القراءة وقد شحنت بمقالات المقتطف وفصوله ومباحثه دون ان يتنازل اصحابها الى التكفير عن سيئاتهم هذه بحسنة واحدة وهي الاشارة الى انَّ ما نقلوهُ او سرقوهُ مأخوذ عن شيخ المجلات الذي قضى ستًّا وعشرين سنة في خدمة العلم والادب وترك عشرات الالوف من الصفحات مكتوبة بمداد العمر لا باسود الحبر وبيراع المشقة والتعب لا بالقصب وعلى صفحات السهر والارق لا على قرطاس وورق

وفضولٌ مني أن أُشيرُ الى فضل هذه المجلة بعد ما شهد بفضلها الخاصُّ والعام ولكن يشقُّ على الحرّ الكريم ان يطمع بعض ادعياء الكتابة في حلها ويتهافتون من كل فجٍّ على تهضُّم جانبها وسلب حقوقها و بخس أشيائها او ليس من الكياسة وسلامة الذوق أن نستأذن في نقل كلّ ما يراد نقلهُ وهي لا ترد سائلاً ولا تمنع ناقلاً او تذكر على الاقلّ في مستهلّ النقل او ختامهِ قضاءً لواجب الادب ووفاءً لحق الخدمة ؟

ولعلَّ بعض المقتصرين في سرقاتهم على المعرَّب في السياسة والعلم يستسهلون الامر ولا يحسبون ذلك شيئًا كأنَّ التعريب عندهم سهل المنال وبالتالي يجوز انتحال المعرَّب خلافًا لما أُلفَ او صُنِّفَ لكنَّ الواقع غير ما يتوهمون ولو وسع المقام لبينتُ لهم انَّ التعريب صعبٌ كالتأليف والتصنيف وكثيرًا ما يكون اصعب منهما كليهما وانَّ حقَّ الكاتب في ما يعربهُ كحقهِ في ما يؤلفهُ او يصنفهُ

فليت الكتَّاب البلغاء . والشعراء الادباء الذين قضوا في مزاولة هذه الصناعة الشريفة الاعوام والسنين . وتعهدوا ملكتها المغروسة فيهم بعرق الجبين لا بماء المعين . يشبون حربًا عوانًا على سرَّاق الشعر والنثر . و يشددون عليهم النكير في السرّ والجهر . حتى يرعووا عن هذا الامر المعيب والله حسبي واليهِ انيب

القاهرة اسعد داغر